



عمر ادلبي

صفحة العابر

شعري



عمر إدلبي

صحف العابر

تخيَّلات شعريَّة

نشرت هذه المجموعة كطبعة أولى تحت عنوان (مكاشفات العابر) في العام 2004 ،
وصدرت عن دار الصدى للصحافة والطباعة والنشر في الإمارات العربية المتحدة ،
بعد فوز المجموعة في المركز الأول بمسابقة مجلة دبي الثقافية

***** * *****

و نشرت في طبعة ثانية تحت عنوان (صحف العابر) في العام 2009 مع تعديل بسيط
تجلى بإضافة نص (الغياب) ، وصدرت عن اتحاد الكتاب العرب في سوريا بعد فوز
المجموعة في مسابقة الدكتور نبيل طعمة - دورة الشاعر نزار قباني

للندكيز فقط

عُثِرَ على هذا المخطوط في صندوق حلمٍ طويل.. طويل.... وبعد معاناة طويلة فُتِحَ الصندوق، فإذا به يضم مخطوطاً غير موسوم بعنوان، يروي حكاية الراوي مع عابر، عابرٌ ترك وراءه ما ترك، وعبر، وأول ما شوهد من كلمات على أول صفحة من المخطوط كان مكتوباً بجبرٍ غريب اللون، وخطٍ يماثله في الغرابة، ولا يمكن وصف اللون والخط إلا بالقلق!!!!

الكلمات كانت تؤلف بعض الجمل، نثبتها بأمانة، كما تركها الراوي على مخطوطه:

”النقد فعلٌ يرمي إلى إضاعة النص... كلما صادفتني هذه العبارة أتخيّل ذاك السؤال، السؤال الذي يشكل أكثر النصوص الإلهية عتمةً على الإطلاق، وأسأل نفسي:

هل سيتمكن أحدٌ يوماً ما من إضاءته؟؟

أرجوكم... لا تضيئوا جوانب نصوص هذه الصُحف... فكروا بالسؤال”

مقدمة الراوي لما كتبه العابر قبل العبور:

لم أدرك يوم أتاني يبكي
أنّ الرّعشة في كفيّ لها أسباب كافية
لتكون كقصف الرّعد،
وأنّ مخاوفه ليست حمى، بل صادقة،
وغمٌّ ثلّ كشوف بصيرته.
لم يكتب شعراً يوماً،
فاجأني بدموع شاعرة
تهوي كنجوم من علياء الرّوح
إلى أفياء سكّينته.
لم يترك قطرة شعرٍ
إلا قصّ عليها تلك الليلة
كيف رأى في الحلم طريقاً
يرصف فيه الموتُ خطاه إليه
ويحمل بين يديه تذاكر رحلته.
وضحكك .. ضحكك ..
ضحكك على ما قال، فغادرتني مكسوراً،
حتى جاء الصبحُ
بكيئ .. بكيئ ..
بكيئ كما لو قلتُ
كسرتُ جرارَ الدمعِ أمامَ القبرِ،
وأدركَ قلبي أنّ العابرَ
يعرفُ قبل صعودِ الجسرِ
بأنّ ضفافَ محطته اقتربتُ،
والآن
وقد عرّفتُ روعي ميعادَ محطّتها
أهديكم بوح قصيدته:

الجسر والعابرون

(1)

كنت أمسٍ بقربي،
وعلمتني الدمع يا موتُ
أكثر مما ظننتُ،
أنا عابراً،
ليس أكثر،
لكنَّ بي عادة السنديان.
عابراً ليس أكثر...
جسراً حياتي،
وللجسر فتنة،
للضفاف تفاصيل ساحرة،
للزمان غوايته، والمكان.
عابراً كلُّ هذا،
ولا شيء أعلى
سوى رقة لأصابع عاشقة
فوق حَدِّ الكمان.
عابرونَ ولا أكثر.
عابرونَ،
وهذا المدى عابراً.

*

(2)

يَمْرُرْنَا الْجِسْرُ صَوْبَ الْغِيَابِ الْآخِرِ،

نَمُرُّ سَرِيعاً،

كَمَا يَنْبَغِي،

لَا كَمَا نَشْتَهِي،

وَنَنَامُ عُرَاهُ

عَلَى سَاعِدِ الْمَوْتِ،

نُبْصِرُهُ وَاقْفَاءً قَرَبَ بَابِ الْخُلُودِ

وَيُعْجِزُنَا عَنِ مَنَادَاةِ أَقْفَالِهِ،

فَنَدْلِلُ خَيْبَتَنَا بِخُلُودِ الْأَسَاطِيرِ،

حَيْثُ يَظَلُّ لِأَسْمَانِنَا سَحْرُهَا،

وَشَمُوسُ طِفُولَتِنَا لَا تَمِيلُ.

لَنَا فِي الْغِيَابِ مَكَانٌ،

إِذَا

فَلِيَكُنْ لِلْأَسَاطِيرِ مَنْطِقُهَا،

لَيْسَ يَلْزِمُهَا الشَّمْسُ كُلَّ صَبَاحٍ،

وَيُمْكِنُ أَنْ يَصْغُرَ الْكُونُ لَيْلاً

لَيْسَرِي أَبْطَالُهُ فِي مَشَارِقِهِ

وَمَغَارِبِهِ،

وَيُرَوِّ سَدْرَةَ الْمُنتَهَى،

فَيَصِدِّقُ مَا لَا يُصَدِّقُ

صَحْبٌ قَلِيلٌ.

لَهَا شَأْنُهَا،

إِذْ تَسِيرُ غَيْمًا يَظَلُّ فَارِسَهَا،

ولها ما لها من لغاتٍ
تُبَلِّغُ السَّنةَ النَّاسِ،

ثمَّ لها

أنَّ تمجِّدَ بالموتِ أحلى الصبايا

لِيَهْدَأَ نَيْلُ.

لها شأنُها،

غيرَ أنا

- وإنَّ صَدَقْتُ -

عابرونَ

إلى موعِدٍ لا يحولُ.

**

(3)

لم أنه بعدُ قصيدتي
يا موتُ،
فاخْرُجْ من رُؤى إيقاعِها،
فغيوُمُها الأندى على مرمى سماء.

أحتاجُ أكثرَ،
إنَّ سرَّكَ فاتنٌ،
وأكادُ أشهدُ
أنَّ برداً يعتلي شفّتي،
وأذهلُ من بلاغتهِ،
فلم يخطئ طريقاً - منذ كان -
إلى طريدتهِ،

وأشهدُ
أنَّ صمتاً يعتري لغّتي بحضرتِهِ
فأُبهِتُ،

يا خَفِيّ!!
لكَ الخريفُ هناكَ،
لم أنه القصيدةُ بعدُ،
والأحزانُ لم تقرأ على عمري
سوى ألفِ
وباء.

للحزنِ فتنُّهُ،
كما للعميرِ،
فاصنَعْ مركباً لي

ريثما أشتق من حزني ختاماً طيباً
لقصيدتي،

سأضُمُّ أحبابي،
فبعضُ الطيبينَ هنا،
وأكثرهم مضي،
مروا سريعاً،
لا كما مرَّ الطُّغاةُ على بلادي،
فالطُّغاةُ لهم
كما للبحرِ منطِقُهُ،
إذا موجٌ مضي
فلأنَّ موجاً قادمٌ،
والملحُ مكتوبٌ عليّ.

كم مرّةً أوجعتَ قلبي
باختطافِ غصونه!
فاتركَ له أثراً
يدلُّ على اتزانك،
واختطفَ عمرَ الطُّغاةِ
كما يليقُ بسرمدِيّ.

خذُ ما تبقى في سلالِ العمرِ
حتّى قبلَ أنْ أنهي القصيدةَ
وابتكزْ قهراً لهم،
وبراحتِيّ.

أحتاجُ أكثرَ من غدي،
فاتركَ قليلاً
من شرابِ الوقتِ لي،
لأعدَّ كأساً،

ثمَّ أرفعه إلى أعلى سمائي،
حيثُ تنتظرُ الشقائقُ

نخبَ فلَّ أبيضٍ

لتردَّ أحلامي إليّ.

لم أنه بعدُ قصيدتي،

فاصنعْ على مهلِ سفينةِ رحلتي،

ودعِ الشراعَ ...

فإنَّ أحبابي لديّ.

(4)

تمرُّ خيولُكَ يا موتُ قربي،
ولم تنكشفْ بعدُ أوراقُ عمري
على غزواتِ الخريفِ،
فمن تترقَّبُ ؟

أورثتني ما يزيدُ عليَّ من الحزنِ

والشوقِ

للراجلين .

وأورثتني الأرضَ طافحةً

بنباتٍ تناسلَ من ماءٍ قاماتهمُ،

ليذكّرني بعدي

كلَّ حينٍ .

يزُورونَ وقتي،

لأسمائهم في مدى البالِ رائحةً

- لا أقلَّ -

بنفسجةً،

وظلالٌ تطوفُ بدمعي الذي

وسِعَ الذكرياتِ،

فماذا سأفعلُ بي

حينَ يعصفُ بالروحِ هذا الحنينُ .

بقايا من الذكرياتِ،

وتكفي

لألقيَ روحي من سابعِ الصّرخاتِ

وأشهقُ :

يا موتُ

لي بينَ أحضانهم بعضُ دفءٍ
ولم أتأخَّرَ عن الوقتِ،
كيف وصلتَ بلا موعدٍ

وتركَّتْ دمي في عراءِ الأئينِ؟

بقايا من الذكرياتِ،

أرى العمرَ منحني الظَّهرِ،
كانوا هنا منذُ بعضِ النَّدَى،
يسندونَ سياجَ الضياءِ
بنورِ قناديلهم،

و يُغنونَ من أملٍ:

يا أبانا الذي في السماواتِ
أعطِ البلادَ كفافَ الهواءِ.

كأنَّ لا أباً لك يا موتُ!

كيف تردُّ بسوطك وجهَ الدَّعاءِ

من الطَّيِّبينَ؟

كما سحبٍ غارقاتٍ بأفراحها،
زرعوا،

فتدلت ثريَّاتُ أعيادنا،

ومضوا،

لا كما يدَّعي حزننا

لافتتاحِ احتفالِ النَّباتِ ببرعمه باكرًا،

كان يشغلهم موعدُ أخضرٍ

فوق وجهِ الترابِ،

أعدّوا له ما استطاعوا

من الحبِّ،

لم يحفلوا

- مثلما يدّعي حزننا -

بملائكة تهبّ الصّابرين من الحور ألفاً

ومن طيب الثمرات بساتين

تطفو على كوثر

وسواقِي من عسلٍ

وأباريق من فضّة

أبدّ الأبدِين.

مضوا مثلما سحب

لم تدّعها الرّياح تمُدُّ إلى الأرضِ

ينبوعَ أفراحها،

عبروا أمسنًا صاغرين،

نسوا في حقائبِ أيّامنا طيفَ أسمائهم

والكثيرَ

الكثيرَ من الذّكرياتِ

على صفحاتِ المكانِ،

فأمسُ

- وكانوا هنا -

كم تركنا الهواءَ

يتمتم في سرّه صابراً،

ويرتبُ أشياءه

من شقاوةِ فوضى طفولتنا!

وهنا كان بالأمسِ بابٌ

نُفرّقُ كفيه

كي تتدلى الأراجيحُ

من قوسه الحجريّ العنيد.

وفوق حجارِ طريقِ نحيلِ

هناك،

تهجيتُ أولى حروفِ خطاي،

وصادفتُ ظلِّي يلحقني

مثلما مُخبرِ

فنفرتُ إلى بيتنا خائفاً،

وتعلّمتُ أقهرُ "عول" الظلامِ

بوردِ النّشيدِ.

وأمسُ

رفعتُ إلى غيمةِ صلواتِ القرْنفلِ،

فانهمرتُ دُرّةً

لَفَّها الياسمينُ ببردته،

تلكَ أمي،

السَّماءُ إذا افتتحتُ يومها،

الأقحوانةُ إن حضنتُ عطرها،

الشمسُ حين تمرُّ شالَ الضياءِ

على وجنةِ البحرِ،

منِّي السلامُ على وردةِ

من رضا... وتعب.

وأمسُ

مددتُ يديَّ إلى قمرِ

في المساءِ،

أبي

كانَ في حضرةِ الليلِ

خمرةً أنواره،

حينَ لم يكُ للضوءِ إلا صغارُ العنبِ.

مددتُ يديّ،
كما لو تقولُ
مددتُ له ظمأَ الرّوحِ،
ناولني خبزَ يومِ القصيدةِ
من شجرٍ فوقَ راحتهِ،
كان يرفعُ قوسَ السماءِ
بأغصانهِ،
ثمَّ أسندَ أشجانه الحانياتِ،
ونامَ على أغنياتِ القصبِ.
سرقَت حقائقَ أعمارهمُ
وهي مترعةٌ بدموعي،
ولم تكُ حتّى نبيلاً
مع الزّنبقاتِ الصغيرةِ
يا موتُ.
مرّوا سريعاً،
كأنَّ يديكَ تشدانِ خطواتهم للغيابِ،
كأنَّ يديكَ تدّقانِ قلبي
على حجرِ الحزنِ،
لكنَّ من عادةِ القلبِ ألاّ يصيرَ حطبُ.

(5)

فهل ندرك السرّ؟

لم ندرك السرّ يا موت

كيما نريخ خطاك

من البحث عتًا،

كَبُرَتْ

ولا يترأى لأبصارنا شيبُ عمرِك،

لا يترأى لنا غيرُ أحبابنا

في ثيابِ الحداد.

نمرٌ . كبرقٍ .

على عرباتِ السنين،

فلا يَسْتَضِيءُ بأسمائنا وجهُ هذي البلاد.

نهْيُ باقّة نورٍ لشرفه أعمارنا،

نصفُها قمرٌ

من بياضِ القلوب،

ونصفٌ نُغَطِّي تقاسيمه

عن عيونِ السواد.

خَفَافًا يَمُرُّ بنا العابرون،

الأسامي تمرُّ،

ومملكةٌ من أمانِي عمري

وأعمارهم

تركبُ النَّهْرَ حتّى فَمِ الملح،

يَخْضُرُ وجهُ التُّرابِ ...

ويشحبُ،

يَزْرَقُ ثَوْبُ السَّمَاءِ

وَيَسْوَدُّ،

كَيْفَ إِذَا

يَتَعَبُ الْجِسْرُ مِنْ خَطَوَاتِ تَمْرٍ

وَلَا يَسْتَرِيحُ.

سَرِيعاً نَمْرُ،

سَرِيعاً يَمْرُونُ،

لَا شَيْءَ يَعْلَقُ بَيْنَ أَصَابِعِهِمْ

عِنْدَمَا يَعْبرُونَ

وَلَا قَبْضُ رِيحٍ.

* * * * *

ما كتبه الراوي في تقريره لفصيدة "البياض" التي وجدها

— على قومه — بخط يد العابر فوق قبره، بعد عبوره:

لاحت على قبره، كالصبح تألق
قصيدة من دموع البعد تختلق
مددت . ما اسطعت . روي كي أعانقها
فما تلقى يدي حبر ولا ورق
وَدِدْتُ لو مسَّها شوقي فأدرُّه
في رحلة ليس يأتي بعدها الغسق
قرأتها فأنحنت روي لوحشتها
ومثل برقي طواها عن يدي الأفق
كانت قصيدته، والله يشهد لي
رؤاه تشهق منها وهو ينعق
حتى اسمها كان من آلاء فكرته
والله لا أدعي زوراً وأخلق
وربما يكذب الغاوون دون هدى
وإنني الحق ما أبصرتُ ينلق
كأنه بين أكفانٍ وأبيضها
أفاق، لا جهة لاحت ولا طرق
أكفانهُ غمرت عينيه فانبهرت
من أبيضٍ وسع ضيق القبر يندلق
فسال شعرُ البياض المرِّ مختنقاً
وغامراً برّدٍ وإدِ ضيقه حرق

البَيَاض

بعد أن ودّعوني،
المكانُ هنا صامتٌ
يَسْتَقِرُّ صُراخي،
وأشتاقُ منذ مضوا
أن يجاملني عابراً
بالحديثِ عن الطَّقسِ هذا الصباحِ،
فلن أتذمّر.

المكانُ هنا رَطْبٌ،
كيف يَنسونَ معطفي الصَّوفِ؟
هل قلتُ معطفي الصَّوفِ؟
يا للسذاجةِ،
"كانونُ" لم يأتِ بعدُ،
فكيفَ لهم أن يظنّوا
بأنّ المكانَ هنا باردٌ...
رَطْبٌ؟

وأنا مثلهم،
كنتُ مُرتبِكاً بصغائرِ أكْبَرِ.
المكانُ هنا ضَيِّقٌ،
لا يهْمُ،
فليسوا كثيرينَ،
حتّى ولو أجمَعوا أمرهمُ
وأتى الأصدقاءُ،
فلن أفتحَ البابَ،

سوف أقولُ لهم:
المكانُ هنا ضيقٌ،
فاتركوا وردكُمُ..
ليس أكثر.

كم أنا واحدٌ
منذ أن ودّعوني!
يرفرفُ حولي بياضُ شهبيّ
تمنيتُ أحلامَ عمري
من لونه،
وتمنيتُ وجهَ البلادِ
كما سحره،
وانتظرتُ قرنفلَهُ وطناً كاملاً،
كان أن جاءَ أحمرَ ...
أحمر.

والمكانُ هنا باردٌ ،
صامتٌ،
ليس إلاّ البياضُ،
ظننتُ العمى أسوداً!!
هل تُراني تعثرتُ بالغيمِ؟
أين السَّماءُ إذاً؟
ليس غيماً،
فإنّ الغيومَ لهاثُ السَّماواتِ
في البردِ،
أين أنا من شفاهِ السَّماءِ؟
فهذا المكانُ هنا ضيقٌ
ويمرُّ في أحسنِ الحالِ عصفورةً،

والسماءُ لها ما لها

من رفوفِ العصافيرِ

فيما أظنُّ

وما أتذكّرُ؟

ما يكونُ البياضُ إذاً؟

هل تُراهُ يدورُ المكانُ

على قُرصه

ويسابقُ أحصنةَ الصَّوءِ؟

أم أنني ثَمَلٌ من مناديلهم؟

كان أبيضُها مفرداً بين أثوابهم،

كان أبيضُها عابقاً

ويُشيعُ اختلافاً مضيئاً

كما قمرٍ فوق خَدِّ المساءِ،

كما دمعهم ...

آه

هل قلتُ إنَّ مناديلهم ..؟

قلتُ إنَّ المكانَ هنا أبيضُ

صامتٌ ..

رطبٌ ..

ضيّقٌ ..

مُنذ أن ودّعوني ..

ولا يتغيّرُ؟

يا لهذا البياضِ الذي قد تأخَّرَ!!

* * *

مقدمة الراوي لفصيدة "كتاب الوصايا":

حاملاً بدرين في خديه،

أنواراً بيمناه،

أتاني،

وحدنا في الحلم كُنّا.

كانَ محمولاً على جنحين

من ضوءٍ

يهزُّ الحلمَ بالأناتِ،

يهذي،

مثلاً لو قلت: جُنّ.

لم يُقَلْ إلا قصاصاتٍ

من الأشواقِ للأحبابِ،

أعطاني كتاباً

في وصاياهُ،

ومثل الحلمِ راح.

كاذبٌ إن قلتُ لم أتركْ لنفسي

أكثرَ الأسرارِ حزناً

في الوصايا،

ليس كلُّ الوقتِ في أيامنا

صباحاً.. وراح.

كتاب الوصايا

الوصية الأولى

ستعبرُ هذه الدنيا

وحيداً

مثلك الـ عبروا.

فلا تترك بصدرك نسمةً

إلا وقد طيرتها حياً

بصحبة طيفٍ من وعدوا

وما حضروا.

وحيداً أنتَ

لكنَّ الأحبةَ وردُ سورِ العمرِ

فاغفر شوكتهم

وسعَ العطورِ بزهرهم

واستفتتِ قلبك

في بريقِ عيونهم

إمّا لكِ اعتذروا.

**

هو الحبُّ
اختبارُ جنوننا بالرقصِ
فوق غمامةٍ
في الريحِ.
تجلّي الله
في قطراتِ ماءٍ
لانتظارِ جريحِ.
يربّينا على مسحِ الدموعِ
برمشِ أمنيةٍ
ويفدي حزننا
كمسيحِ.

**

هو الحبُّ
اعتذارُ الغيبِ
عن نقصِ الخلودِ
بفكرةِ البشريِّ.
عتابٌ هادئٌ لرتابةِ الأوزانِ
في نصِّ الحياةِ
وأسرِ قافيةِ الزمانِ
وسقفهِ القسريِّ.

هو الحبُّ
انتباهٌ مخلصٌ للنارِ
في الأرواحِ والأجسادِ
قبل رمادها الجبريِّ.

**

نحبُّ

لأنه لا بدَّ من قمرٍ

لهذا الليلِ

يُنشدُ نصّه الساحرُ.

نحبُّ

لأنّه لا بدَّ من وردٍ

نفيءُ إليه من شوكِ

يسوّرُ عمرنا العابرُ.

نحبُّ

لأننا نخشى على نبضاتنا

من صمتها الغادرُ.

**

نحبُّ

فمنحُ الغيماتِ

فرصةً أن تسابق ماءها

للعشبِ،

تعشّقُ مثلنا

وتعَارُ.

نحبُّ

فنتركُ الأرضَ احتمالاً

أخضراً

لتفتّحِ الأحلامِ

بين أكفِّ من يأتي

كأنّ مدارها الأزهارُ.

نحبُّ... فنُحجِلُ الدنيا

من التلويحِ بالأقدارِ.

كأن الحبَّ حُجَّتُنَا الوحيدةُ
في جدارتنا
بوقتِ آخِرِ
لنكمَلِ المشواز!!

الوصية الثانية

ونحلمُ

لا ليمضي الليلُ

نحلم كي نسابق وقتنا للغد.

ندربُ جنحنا

ونعدُّ حصَّتهُ من الأشرارِ

إذ لا بُدُّ.

وما من قصةٍ في الحلم تكتبها

وتخشى أن يُقامَ على الحروفِ الحدُّ.

وعمَّا موعِدٍ ستجربُ الدنيا

امتحانَ خطاكِ

فامشِ وراءَ فطرةِ حلمكِ الغالي ولا ترتدُّ.

**

هي الأحلامُ..

لا ورْدٌ سواها

يقطف الألفاظُ

من صوفيَّةِ الإحساسِ.

حلولٌ مُشرقٌ للغيبِ

في صحواتنا الأهلَى

بلا حُجبٍ.. ولا حُرَّاسِ.

هبوبٌ خاطفٌ

لحواسِننا الحسنَى

يُدقُّ لجنحنا الأجراسِ.

هي الأحلامُ..
ليس كمثلها غيمٌ
يوزعُ ماءَ بالعدلِ
بين الناسِ.

**

هي الأحلامُ..
حبرُ كلامك الشفافُ
سرُّك بين مختلفين منك
على شؤون البوح
بالتأياتِ.

حنانُ أصابعِ الندمِ الخفيفِ
على جبينِ الذاتِ.

هي الأحلامُ
صورتنا التي لا نلتقي بجمالها
في صفحة المرأةِ.

بلاغتها التماعاتُ
كأنَّ بصيرةً قَطَفَتْ من الآتي كشوفاً
دونما قسماثِ.

فحدِّدْ في التماعِ الحلمَ أرضاً
قبل أن تخطو على ماء البحيرةِ
وانتظر قمرأً
رشيقَ الضوءِ في الغاباتِ.

**

وتحلّمُ مثلكُ الكلماتُ
تحلّمُ بانشقاقِ البحرِ عن أفقٍ
تقيسُ جناحها بمداه.
فإن نامت بحضنِ الصمتِ
فاتركها لبعضِ شؤونِ غفوتها
لها أن تسألَ الأحلامَ
عن معنَى يُراودها، ولا تلتقاه.

ومثلك

تمسكُ الكلماتُ شوكَ مجازها
بيديينِ من قلقٍ
ويجرحها سياجُ الخوفِ
إن حدّثتها عن صوته
وصداه.

**

فحدّدْ وجهةَ الكلماتِ
بللها بماءِ الروحِ
قبل خروجها
من لوحها المحفوظِ
في صدركِ.
ودرّبها على حرّيةِ الأطفالِ
في مدِّ الأصابعِ لالتقاطِ البدرِ
واصقلْ حدّها
ببقيينِ أنّ الموجَ محمولٌ على بحركِ.
نَفَقْدُ ريحٍ فِتْنَتِها،
وعلمها
. بحكمةِ نسمةِ صيفيّةِ .

فَنَ المَرورِ على الزهورِ
فإن أنست لرشدها
فاترك لها زوجينِ
من وَردِ المعاني
واطمننَّ على خزائنِ دُرِّكَ المكنونِ
في عمركِ.

**

لنا أسماؤنا
أحلامُ من وُلدوا بزهرِ خلودهم
في شجرة الأولادِ.
حروفٌ من حفيفِ عبورهم
عَلَقَتْ على أغصاننا،
لكأننا أجراسهم
تبقى
وتمضي ليلَةُ الميلادِ.

ونعبرُ..

وحدها أسماؤنا.. الكلماتُ
تحرسُ عشبنا الباقي
من الأجسادِ.

الوصية الثالثة

ترفّق بالترابِ
وأنت تلتئم خدّه بخطاك،
هذي الأرضُ مركبكَ الأخيرُ
إلى قصور الشمسِ
آن العمرُ من كفيك ينسربُ.

ترفّق باستكانتهِ
فإن نداءه دمعُ العابرينَ
وعُشبههُ هُذبُ.

ترفّق بالبلادِ وحرزها العاليِ
عُلوّ الرياحِ

لا أسوارَ
إلا قامة الأبناءِ تنتصبُ.

**

كما لو أنّها ليلاك يا مجنونُ
غازلها.
كما لو كنتَ آخرَ حبةِ العنقودِ دلّلتها.
كما لو كنتَ أنتَ الليلِ
جدّلتَ شعرها
واسكنُ برمشيها وكجّلها.
كما لو كنتَ وحدك غيمةً
فاهبط.. وظلّلتها.

**

وسمّ رغيفَ خبزك

باسمِ سُمرتها.

وفجركَ باسمِ طلتها.

وصوتك بالوضوحِ السرمديّ

لرنةِ الخلالِ

في خطواتِ مشيتها.

وسرّكَ باسمِ لُغزِ الليلِ

في أمواجِ غرّتها.

**

سيحدثُ أن تبوحَ بسرّها

للريحِ،

يحدثُ أن تُصابَ بعارضِ السجّانِ.

وتلمحَ بين رمشها أسيّ

من دورةِ الأزمانِ.

فدعّها تحتجبُ حُلمينِ،

واحرس جفنها

من ملحِ دمعها الحزينةِ

وانغرس في كفّها

علمًا

إلى أن تطويَ الأحزانِ.

**

بلادٌ حين نُشبِّهها
يسيلُ الوردُ في الشريانِ.
لها دَيْنُ الهواءِ
وأُمَّه الزرقاءِ
في أيّامنا
ولها دمانا ما أرادتُ
أن تزَيَّنَ ثوبها
بشقائِقِ النعمانِ.

فإن صَلَّتُ
فنحن الليلُ يغمرها،
وإن رَشَدْتُ
لنا من صُبْحها دنيا
بزِينتِها،
بلادٌ كلما شابتُ
تفيءُ إلى عذوبتِها
وتحملُ من جديدٍ صخرَ فتنّتها
كأنَّ سقوطَها ما كان!!

تعليل بخط الراوي على هامس الوصية الثالثة:

{ لا أسمىها }

حتى أسمىها بلاداً
ينبغي أن أستعيد . ولو قليلاً .
من تفاصيل ابتسامتها بوجهي
كلما فاجأت ذاكرتي .

حتى أسمىها حقولَ صباي
والصدرَ الحنونَ
أريدُ منها أن تجرّبَ نطقَ نصفِ اسمي بلا خطأ،
أسامحها بحرفٍ واحدٍ،
فلربما عانت من اللهجاتِ،
أقبلُ أن تدوّنهُ على كفي
ولو رَسَمْتُهُ بالخطِ الرديءِ،
وأكتفي منها بأن تأتي بريشتها،
فدمعي ملء محبرتي .

سأكون ممتناً لطلتها عليّ
ولو كطيفٍ من وراء الحلم،
يكفيني إذا وَقَّتْ . كمثل الأصدقاء .
على الحياءِ
إذا تناولني الوشاةُ بكذبةٍ،
يكفي إذا غابت عن الحفلِ العظيمِ
فلم تصفّقْ
حين يعقدُ تحت مرآها الطغاةُ حبالَ مشنقتي .

حتى أسمىها بلادي
ينبغي أن لا أدوبَ بخيبتني إن قيلَ لي:
ما نحنُ يا أبتني ؟؟؟

* * * * *

الوصية الرابعة

اليوم أنت هنا
وحاضرُك الرهانُ.
وغداً... بدائرة احتمالٍ
قد تدينُ له بقصِّ شريطِ صبحٍ
أو تُدانُ.

لا نهرَ يرجع مرتينِ
فَكُنْ كما قصبٍ يحنُّ... ولا يئنُّ
فليس ينتظر الزمانُ.

**

هي دمعَةٌ وتمرُّ
كي تندی جنورُ الروح
في بريّة الأيام
فالأحزانُ وعدُّ.

هي دمعَةٌ.. وتمرُّ
مثل الأصدقاء الخائبينَ
فلا تفسرُها بعاصفةٍ من النّاياتِ
فسرُها برقّة عاشقٍ
يُكيه وَجْدُ.

للحزنِ أن يهمي رذاذاً
لا يفيضُ.. ولا يزيدُ على ندوبٍ
حين يبدو.

**

لا وقت يرجع مرةً أخرى
لتسأل:

منذُ كم ماضٍ سهوْتُ
ولم أفكّر في ظلالِي؟
هل ما تزالُ تنوءُ
من دورِ الممّيّ في خيالِ الظلِّ؟
أم هَجَرْتُهُ
وانصرفتُ لتشبهِ ذاتها؟
أم أنّها انكسرتُ... كحالي؟

لا مرةً أخرى لظلكَ
فاستعدّه
قُبيلَ منحدرِ الغيابِ
وكُنْ له جناحاً
ليصعدَ مثلما غيمِ
على درجِ الجبالِ.
هي برهةٌ...

لا هدنةً أخرى
لنملاً روحنا
من عنبرِ النسماتِ
والألوانِ
والأشجارِ
والأشعارِ
قبل مرورِ سهمِ خاطفِ
ما بين أضلاعِ الغزالِ.

**

لا تطمئنْ لحبرِ عمرِكَ

قد يجفُّ

وما استوتِ في عرشها الألفُ.

فاتركِ على خَدِّ الأحبَّةِ

ما استطعتِ من الرسائلِ

قبلَ ليلِ الوقتِ ينتصفُ.

قد لا يمرُّ بك الصديقُ

غداً

ويسبِّقُ الترابُ إلى احتضانِ لقائهِ

فاحفظِ تفاصيلَ ابتسامتهِ لشوقٍ

مثلهُ التلفُ.

لا تطمئنْ كما اطمأنَّ العابرونَ،

مضوا

وفي أقلامهم أشعارهم

ظلتِ مؤجلةً لوقتِ

لم يَعدْ مِنْ قَبلهم أحداً

بردِّ زيارةٍ

لكنهم غَفَلوا... وقد عرفوا.

فاغفرْ.... كأنَّكَ لن تكونِ غداً..

وارقُصْ.... كأنَّكَ عاشقٌ أبداً...

واحلمْ.....كأنَّ العمرَ قد وُلداً..

واتركِ رِوَاكَ على هِوَاكَ

كأنَّ قلبَكَ وحدهُ رشداً

وعليكِ وحدكِ تنزلُ الصُّحفُ.

الوصية الخامسة

ما إن تجرّب صهوة الدنيا
تُجربك العواصفُ
والحرون من الجبال.
فاحمل من العثرات ذكراها
ولا تحمل صداها فوق ظهرك
ما استطعت
ولو تكسرت النصالُ
على النصال.

هفواتنا تمضي
ويبقى أن نُعمّر كامل الغدِ
بالأمني
والجمال.

**

وتأمل الأرض الدؤوب
تكرّر الهفوات من دهرٍ
وما زالت تدور.
تتكرّر الواحات فيها
والسراب.
تتكرّر الغابات
والحطاب.
يتكرّر الصيادُ
والعصفور.

تتكرر الأصفادُ
والمقهورُ .
ولأنها أبداً تدورُ ..
يتكررُ الأطفالُ فيها.... والقبورُ .
ستدورُ هذي الأرضُ
ما دمنا نغني
كلّما انكسرتُ جرازُ الغيمِ
وانتبهتُ جذورُ .

**

ستدورُ
ما لم يفرغِ الغاؤونَ
من وصفِ المليحةِ
في الخمارِ الأسودِ .
وتدورُ
ما لم يَنْجَلِ السرُّ العصيَّ
لناسكٍ متعبِدٍ .
ستدورُ ... من دهرٍ تدورُ
ولم تقف يوماً
لتعْتَبَ من ملاوعةِ النسائمِ لليدِ .
ستدورُ ما دامت خطانا مخلصاتٍ
للرؤى
مهما تروخُ وتغندي .

**

أخطأونا ...

برهانُ أنا سوف نُلدغ من رؤانا

مرتينِ ...

ومرتينِ..

بلا عتابٍ جارِحٍ

يقسو على القلبِ الجسورِ.

أخطأونا

خطواتنا الأولى

إلى السريِّ في البشريِّ

والمكتوبِ ما بين السطورِ.

لكأنَّها سردٌ حدائِي

للعبتنا القديمة

في الخروجِ على النصوصِ

وكشفِ ما خلف الستورِ.

أخطأونا

أبناؤنا العاصونَ،

رَميئتنا على الواحاتِ

حين تصيبُ ساقَ الرملِ

نحفظُها

ونحفظُهم

كسِرِّ في الصدورِ.

**

ستدورُ هذي الأرضُ
حتى يسكّرَ الجرسُ المخبأُ
في الضلوعِ من الرنينِ
نكايةً بتواطؤِ العمرِ القصيرِ
مع الغيابِ.

وستخطئُ الخطواتُ وجهتها
فلا معنى لماءٍ بعد صحراءِ
إذا كفَّ السرابُ عن السرابِ.

ستدورُ ...

والأبعادُ تكسِرُ سورها
فلربّما أخطأونا احتسبتُ

بدائرة الصوابِ !!

الوصية السادسة

كُنْ أَنْتِ...

يَبْزُغُ مِنْ ظِلَالِكَ سِنْدِيَانِ

طَاعِنٌ بِالْأَرْضِ

تَحْضِنُهُ سَمَاكَا.

وَابْحَثِ عَنِ الْفَرْدُوسِ فِيكَ

فَإِنَّهُ زَهْرٌ تَفْتَحُ

فِي هَوَاكَا.

بِيَدَيْكَ

تَقْتَرِحِ النَّسِيمَ عَلَى الْعَوَاصِفِ

وَالنَّوَاذِ فِي الْجِدَارِ

عَلَى الْبُيُوتِ

وَأَنْتِ تَقْتَرِحُ الْبِكَاءَ

أَوْ الْغِنَاءَ

عَلَى رُوَاكَا.

هِيَ كُلُّهَا كَلِمَاتُكَ الْأَعْلَى

فَدَوِّنْهَا بِمَاءِ الرُّوحِ

وَاقْتَرِحِ الْبَدَايَةَ

وَالخَوَاتِيمَ الْمُضِيئَةَ،

وَالجِهَاتِ

عَلَى خَطَاكَا.

كُنْ أَنْتِ

كَيْمَا تَرْسِمُ الْأَكْوَانُ صُورَتَهَا

بِحَبْرِ صِفَاتِكَ الْحَسَنِ

وتحفظ من سطورك
جوهراً الأشكالِ
والأبعادِ
والأشجارِ
والأمطارِ،
والذُّررِ البهيَّةِ
في النُّفوسِ السُّكريَّةِ
تحت أنوابِ الحبيبةِ،
كلُّ هذا الفيضِ مُنوجدٌ بذاكا.

**

ولأنَّ روحك
- لا أقلَّ -
يَدانِ من نورٍ وناهِ
إن رَمَيْتَ، رَمَيْتَ،
لا السِّرَّ الحَفِيَّ،
ولا القضاءِ.
ولأنَّ جسرَكَ من خُطَاكَ
وَمِنْ رُؤَاكَ
لَكَ الأمامُ ... أو الوراثةِ.
هي رحلةٌ .. وكفى،
فَقُلْ للنورِ:
كُنْ فرساً لظليِّ
كي تليقَ بما تشاءُ.

**

كُنْ أَنْتَ

يَنْتَبِهَ الزَّمَانُ إِلَى خَطَاكَ،
وَتَبْدَأُ الْأَحْلَامُ فِي كَفِّكَ رَقِصَتَهَا
عَلَى مَرَأَى الظَّلَامِ.

هِيَ رِحْلَةٌ...
لَا شَيْءَ أَكْثَرَ بَعْدَ صَحَوَاتِ الْعُبُورِ
إِلَى الْغِيَابِ وَغَيْبِهِ
قُلْ لِلْهَوَاءِ، يَكُنْ،
فَلَا مَسْرَى لَهُ إِلَّا جِهَاتِكَ
فِي الْخِتَامِ.

وَأَمْنُ رُؤَاكَ جَنَاحَ تَوَقُّعٍ
لِلسَّمَاوَاتِ الْعُلَى
إِنْ رَمَتَ سَدْرَةَ مَا يُرَامُ .

الوصية السابعة

وأقولُ قولِي

في الوصايا،

والسّلام.

* * * * *

الغياب

أَجَلٌ ...

فألزمان بظلِّ هُداك انتهى.

أَجَلٌ ...

إنَّ آخرَ صمتٍ على الشفتينِ

سيعني غياباً،

وإنَّك سوف تغادر قلبي

على رحلة المنتهى.

أُصَدِّقُ يا أبتى

أنَّ هذا الغموض الأخيرَ

سيتركني ذاهلاً

أترى قبل الكلامِ

وقبل الخصامِ

وبعد الخروج المؤقت للأصدقاءِ

من البيتِ،

هل سيعودون؟

أم أنَّ هذا الوداع الأخيرَ

سيُفرغُ آخرَ نصفِ بكأسِ رهاني

على موعدٍ مشتهى؟

**

يَدُلُّ عَلَيْكَ حَفِيفٌ نَدِيٌّ
إِذَا مَرَّ دَمْعٌ
بَأَغْصَانِ رَمَشِي
وَأَوْشَكُ أَسْمَعُ بَحْرًا

بنبضي.

كَمَا لَوْ غَيَوْمٌ
تَفِيضُ عَلَى حَاجَةِ الرِّيحِ
أَبْقَى.....

وتمضي.

كَمَا جَبَلٍ
تَفْسُحُ الْأَرْضُ مَتَّسَعًا
فِي سَرِيرَتِهَا لِرَوَاسِيهِ

تمضي.

وأبقى..

كَأَنِّي الْحَجَارَةُ
تَرْجُمُ بِي شَبَحَ الْوَقْتِ أَرْضِي.
وتمضي.....

فَمَا حِكْمَةُ الْغَيْبِ

فِي آيَةِ الْمَوْتِ
إِنْ تُلَيْتِ طَوَّحْتِي الشُّكُوكُ
وَأَشْرَاكَ بَعْضِي؟

**

يذكرني بيقينك شكي،
فأبكي عليك
وأبكي عليّ.

تَيَقَّنْتُ
حَتَّى كَأَنَّكَ صَدَقْتَ رِيحاً بصوتي
وَشُبَّهَ لِي
أَنَّ ظِلَّكَ يَفْتِنُ ظِلِّي
لَأُشْبِهَهُ

فَنَفَرْتُ
وحاولتُ ما يستطيعُ الشقيّ.
كلانا عصى للبصيرةِ أمراً
فلا أنتِ سَوِيَّتِي سَندياناً
ولا أنا لِنْتُ
كعشبٍ طَرِيّ.

عَبَرْتُ
وَزُلزِلَتِ الأَرْضُ زلزَالها
فانْتَبَهْتُ
كَأَنَّ غَيْمَةً وُلدتِ ومضَ برقٍ
خَبَوْتُ
وأنتِ بمائكِ حَيّ.

**

سدىً .. في سدى.

إذا لم تكن هذه الأرضُ ضماناً

وتريدُ صفىّ الندى.

إذا كان وعدُ الترابِ

كوعدِ السرابِ

سدىً في سدى.

أليس هو الموتُ

وقت انشقاقِ الحقيقَةِ

عن وجع الشوق للعابرينَ

فنشتاقُ.... نشتاقُ...

حتى كأنَّ الحنينَ صدَى؟؟

أليس كمثل سقوطِ الحمامةِ

عن فرسٍ في السماءِ

إذا صعّدت جبلَ الغيمِ

تطلق ریحَ عليها الردى؟؟

سدى... في سدى.

هو الموتُ

آخرُ سهمِ بقوسِ الغموضِ

إذا طالتِ الروحُ بعضَ الوضوحِ

بِنَصِّ المدى.

**

أُصِدِّقُ يَا وَالِدِي

. ما استطعتُ . غيابكُ .

أَجَلٌ... .

وَأُصِدِّقُ أَنْ حِصَانِكَ خَانِكَ

قَبْلَ بُلُوغِ الْغَزَالِ

بِرَأْسِ الْجِبَالِ

وَأَسْقِطُ عَنْ كَتْفَيْكَ سَحَابَكَ .

أُصِدِّقُ.. .

لَكُنْتُ كَلِمًا جَزْتُ يَوْمًا

بِدُونِكَ

يَكْسِرُنِي أَنْ قَلْبِي يَسْبِقُنِي

لِيَشُمَّ تَرَابَكَ .

أُصِدِّقُ يَا وَالِدِي

غَيْرَ أَنَّ غِيَابَكَ طَالَ

وَلَمْ يَبْقَ لِي فِرْصَةٌ

لِتَوْفِّعَ طَرِقَ خَفِيفٍ عَلَى الْبَابِ

يَجْذِبُنِي لِعِنَاقِكَ،

بِالْعَتَا يَا أَبْتِي فِي الْغِيَابِ

وَيُقْلِقُنِي أَنَّ هَذِي الْحَيَاةَ

سَتَفْتِنُ ذَاكِرْتِي آخِرَ الْأَمْرِ

حَتَّى تَصِيرَ أَحَادِيثُنَا الْمَاضِيَاتُ

كَمَا شَهَبٍ تَعْبُرُ الْبَالَ رَمْشَةً جَفْنٍ

وَتَطْوِي كِتَابَكَ .

ما كتبه الرزاي في آخر صفحة من مخطوطه:

سريعاً أمراً،

سريعاً تمرّون،

لا شيء يعلّق بين أصابعكم

عندما تعبرون

ولا قبض ریح.

فماذا تُخبئُ

يا موتُ

للعايرين

وراء الغيابِ الفسيحِ !!؟؟

?????